لقد بات معروفا ، على نطاق واسع الان ، أنه حالما بدأت الحرب العظمى الاولى سعت روسيا القيصرية الى اقرار كل من حليفتيها ، بريطانيا وفرنسا ، لمطالبها بضم استانبول ومضيقي الدردنيل والبوسفور الى ممتلكاتها . وعندما تمت الموافقة على ذلك سعت فرنسا لدى روسيا ، ونالت اعترافها بالمطامع الفرنسية في سوريا ، بيد ان روسيا أبدت بعض التحفظات بخصوص فلسطين بداعي أهميتها الدينية الخاصة . وكانت فرنسا قد تلقت ، حتى قبل الحرب ، تطمينات من بريطانيا بعدم اكتراثها بسوريا بكاملها طالما ظلت هذه جزءاً من الامبراطورية العثمانية . ولكن عندما دخلت الامبراطورية العثمانية الحرب ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا ، وعندما حظيت روسيا باعتراف حليفتيها ، رسميا ، بمطالبها الاقليمية في استانبول ومضيقي الدردنيل والبوسفور ، فاتحت فرنسا بريطانيا في أمر تحديد وتعيين مصالح كل من الحلفاء في الولايات الاسيوية للامبراطورية العثمانية . وكان جواب بريطانيا ، بهذا الصدد ، أنه ، مع ملاحظة أن « التطلعات الاقليمية » لم تتبلور بعد ، قررت الحكومة البريطانية أنه : « عندما ينحسر سلطان تركيا عن استانبول والمضائق ، لا بد أن تتشكل ، لصالح الاسلام ، وحدة سياسية اسلامية مستقلة في مكان آخر ، وسيكون مقرها ، بطبيعة الحال ، الاماكن المقدسة ، وتضم الجزيرة العربية ، ولكن لا بد وأن نتفق على ما ينبغي ان تضمه الى جانب ذلك » .

كان هذا في شهر آذار (مارس) ١٩١٥ . ومن المهم ملاحظة تاريخ ودلالة هذه السياسة البريطانية التي سبقت في تاريخها مراسلات مكماهون في وقت لاحق من العام ١٩١٥ ، والمفاوضات التي توجت باتفاقية سايكس ــ بيكو في العام ١٩١٦ ، ووعد بلفور في العام ١٩١٧ . لقد كانت تراود الحكومة البريطانية ، بادىء ذي بدء ، آخذة بعين الاعتبار المشاعر الاسلامية في الهند وغيرها من انحاء الامبراطورية البريطانية ، فكرة انشاء « وحدة سياسية اسلامية مستقلة » غير تركية تتمركز حول مكة والمدينة (وربما القدس أيضا) ، وتسيطر على مناطق تشمل ، فيما تشمله ، الجزيرة العربية على أقل تقدير . واذا استبدلت ، في بيان الحكومة البريطانية المشار اليه ، كلمة « اسلامية » بكلمة « عربية » خرجت بصورة محددة لنوع الاستقلال السياسي الذي كان يرومه شريف مكة ، باسم العرب ، في تموز (يوليو) ١٩١٥ . والفرق الوحيد بين الحالتين هو ان شريف مكة كان اكثر دقة وتحديدا فيما يتعلق بالحدود الاقليمية ، ولكن لم تكن الحكومة البريطانية قد فرغت بعد من البت في هذه القضية .

[٢]

فلماذا ، اذن ، بدت مقترحات الشريف حسين بعد قرابة أربعة شهور أقل توافقا مع مخطط السياسة البريطانية المذكور آنفا ؟ لقد كانت مقترحات الشريف حسين قومية ، وليست دينية ، في مادتها ومبناها ، وتنطوي في ثناياها على احتمال أقل في أن تخلق مصاعب بالنسبة لمستقبل الخلافة ومطالب السلطان العثماني بها ، اذ ، كما تبين فيما بعد ، عند اعلان « الثورة العربية » في حزيران (يونيو) ١٩١٦ تعاطف مسلمو الهند مع السلطان بصفته الخليفة الشرعي ، واعتبروا الثورة خروجا على الوحدة الاسلامية . بيد ان هذا لم يكن السبب الرئيسي للتحول الذي طرأ على السياسة البريطانية ، وازدواجية نظرة بريطانيا الى غايات « الثورة العربية » . لقد انصب اهتمام بريطانيا الاساسي في نظرتها « للثورة العربية » كعنصر من عناصر المجهود الحربي ضد تركيا . ان ما أفسد فرص تحقيق تفاهم عربي ــ بريطاني دائم ، وأحبط بالتالي تحقيق أماني العرب في الاستقلال ، وعرّض ديارهم لسيطرة بريطانية او فرنسية ، حلت محل السيطرة التركية ، كان مجموعة مترابطة من العناصر التي ، عندما نتمعن فيها بعد انقضاء هذا الزمن الطويل ، ندرك أنه ما من قوة على الارض ، في ذلك الوقت ، كانت